ترجمة في كتاب «مع بورخيس» الذي صدرت ترجمته العربية عن «دار الساقي»، لا يبخل ألبيرتو مانغويل في عرض مزايا بورخيس الشخصيّة، لنكتشف نزقه، ومقدرته على السخرية، وعدم إعجابه بالكثير من الأسماء الأدبية التي أسهمت في تشكيل الثقافة العالمية

«مع بورخيس»... جزء من الأبديّة الخضراء

رامي طويل

«إن أحسنتَ التصرّف سأسمح لكَ أن تحلم بالدبّ». دعابة لا يمكن أن يسمعها طفلٌ لم يلتقِ خورخي لويس بورخيس (1899- 1986). الكاتب الذي يعتبر بيضة القبّان في أدب أميركا اللاتينية، وشغل العالم بكتاباته، ونظرياته عن الأدب والقراءة، لم تكن حياته مفصولة عن أدبه، ما جعلها مادّة مثيرة للقراءة والتحليل، وإعادة اكتشاف كوامن هذه الشخصيّة الاستثناء في عالم الكتابة والقراءة.

في كتاب «مع بورخيس» (2004) لألبيرتو مانغويل (1948) الذي صدرت ترجمته العربية عن «دار الساقي» (2015- ترجمة أحمد م.أحمد)، يكون القارئ على موعد مع رحلة استكشاف لعوالم بورخيس السريّة، وهذه المرّة بقلم واحد من أعلام الثقافة المعاصرين، صاحب كتاب «تاريخ القراءة» الذي حظي - في الـ 16 من عمره - فرصة أن يكون واحداً من كثيرين قرأوا للكاتب الضرير، من دون أن يكون واعياً، آنذاك، لهذا الامتياز. لكنّه يدرك بعد كل تلك السنين، أيّ عالم ثريّ حظي بالعيش فيه لأربع سنوات، استطاع خلالها أن يخوض مع بورخيس في ما يجب أن تكون عليه الأحاديث «حول دقّة الكتاب، واكتشاف كتّاب لم أقرأهم من قبل، وأفكار لم تكن لتخطر لي».

لم يكتب مانغويل في «مع بورخيس» سيرة ذاتية، رغم أن ما يرويه هو تجربة شخصيّة، بقدر ما حاول تكريس ذاكرته لصالح شبكة من العلاقات الشائكة، بين القارئ والكاتب، الكاتب والكتاب، القارئ والكتاب، الكتاب والحياة برمّتها. كأنه بذلك يحمل القارئ إلى خلف الجفنين المغمضين لبورخيس، ليمكنّه من رؤية مختلفة للأشياء. الكاتب الذي رأى أنّ «العالم مكتبة» كانت مكتبته المنزليّة مخيّبة للآمال. لكن يبدو ذلك طبيعياً لمن استطاع أن يرى الحياة من خلال الكتب، ويرسم لنا خرائط لقراءة ما هو أبعد من الحياة الواقعية. يقول بورخيس في إحدى المرّات: «يطيب لي أن أكتب قصة بجودة الحلم. حاولت، وأحسب أني لم أفلح قط»، ما يفسّر تلك العوالم التي أبدع في ابتكارها، لتشبه حياة موازية للحياة، وفضاءات مفتوحة على اتسّاعها لتستوعب من الأفكار ما لا حدود له. لكن القارئ الأكثر شغفاً لم يكن مدفوعاً لاقتناء الكتب بفعل الواجب، بل كان ينشد المتعة، التي هي باختصار أسمى معاني الحياة. ويبدو بورخيس، عبر مانغويل، قارئاً أكثر من كونه كاتباً. العجوز الذي فقد بصره في الـ 58 من العمر، كان يعيش في عالم لفظيّ «نادراً ما داخلته الموسيقى واللون والشكل». لقد كان، بحسب مانغويل، «أعمى أبداً». لكن رغم ذلك، لا يمتنع عن الإعجاب بأعمال صديقه خول سولار، وأعمال أخته نورا، أو دورير وبيرنسي وبليك ورامبرنت. غير أنّ ذلك كان «إعجاباً أدبياً وليس أيقونياً». وكذلك حبّه لموسيقى موتزارت، وتذكّره لموسيقى رافقت أفلاماً محددة. لم يكن معنياً كثيراً بمن ينتج الفن، قدر اهتمامه بالفن بحدّ ذاته. حتى أصدقاؤه من الكتّاب لم يتحدّث عنهم إلا من خلال كونه قارئهم، حيث القارئ، برأيه، يضطلع بمهمّة الكاتب، «إذا لم أفهم قصيدة، فلن أستطيع فهم ما هي نيّة كاتبها». جوهر الحقيقة يكمن في الكتب، بالنسبة إلى بورخيس، الذي كان يعي أنّ كلّ حديث عن الكتب يعني متابعة حوار بدأ قبل آلاف السنين، وسيستمرّ إلى ما لانهاية، مما يفسّر نفوره من النظريات الأدبية التي تجاري الموضة، ويلقي لومه على الأدب الفرنسي لتركيزه على المذاهب والشلل الأدبية، بدل تركيزه على

> كان يرغب بكتابة قصة بجودة الحلم

الكتب. يقول بورخيس لمانغويل: «مع الزمن، كلّ قصيدة تصبح مرثاة»، وهو ما يفسر اهتمامه بالشعر، فهذا الشكل من الصياغة اللغوية يبدو - في مكان ما - أقرب إلى صورة الحياة، فكيف إذا ما امتزج الشعر بالملاحم؟ عندئذ سيغدو بورخيس شغوفاً حدّ أن تفيض عيناه بالدموع. كلّ المحن المتأتيّة من الآلهة لم تكن بالنسبة إليه إلّا مبرراً لخلق الفنون «تحوك الآلهة للإنسان المحن كي يكون للأجيال القادمة ما تغنّي عنه». لكن أين يقف شخص كبورخيس من فكرة الآلهة والإيمان، هو المسكون بهاجس البحث عن الحياة حتى في الخطوط اللامرئيّة، ليعيد صياغة مفرداتها بما يتيح لقارئه أن يرى ما لا يُرى. «أنا النقيض للكاثوليك الأرجنتينيين، إنهم يؤمنون لكنّهم غير معنيين، أنا معنيّ لكني لا أؤمن». بهذه العبارة يشرح بورخيس علاقته بفكرة الإله، مفضّلاً المتاهة الدائريّة، لما تتيحه من إمكانيات لقراءة الحياة وفهمها بشكل مختلف.

يحاول مانغويل في «مع بورخيس» توريط القارئ في عوالم شخصيّة استثنائية، لكنّه بمهارة عالية يورّطه في علاقة متعدّدة الأبعاد، فمانغويل اليوم ليس ذلك الشاب الذي قرأ لبورخيس فقط، بل هو اليوم منتج للأدب، وللنظريات الأدبية. وبالتالي نحن أمام سيرة نتلصص من خلالها على تفاصيل حياة كاتب وَسِعه أن يرى حياة كاملة. وفي الوقت نفسه نشهد لحظات تشكّل الوعي لدى مراهق سيروي لنا، بعد سنوات طويلة، سيرةً لا بد من أن بورخيس كان ليتوق أن يقرأها، أو أن يجد من يقرأها له. كأنّ مانغويل بذلك يؤكّد مقولة معلّمه الذي تعامل مع الحياة على أنها ملحمة متواصلة منذ نشأتها الأولى، حاملها، وصلة الوصل بين ماضيها ومستقبلها، هو الكتاب «تلك المعجزة المتواضعة» الذي لا يمكنه أن يفنى. «إذا فُقِدَ كتابٌ، فسيكتبه أحد ما من جديد في نهاية الأمر» هي ثِمَةُ الخلود الكافي، لشخص رأى أنّ من يتوق للخلود لا بدّ أن يكون مجنوناً.

لا يبخل مانغويل على قارئه في عرض مزايا بورخيس الشخصيّة، لنكتشف نزقه، ومقدرته على السخرية، وعدم إعجابه بالكثير من الأسماء الأدبية التي أسهمت في تشكيل الثقافة العالمية، ورؤيته المختلفة حول أنّ «كلّ كاتب يخلق أسلافه الخاصين به» معيداً الكاتب إلى علاقته بالماضي، وإعادة انتاجه، بما يمكن ألّا يتوق لكثير ممّن يصرّون على أنّ علاقتهم هي أوّلاً مع المستقبل. يؤكّد مانغويل بذلك على أبديّة الأدب، بعيداً عن الإعجاز، كواحد من الفنون التي يقول عنها بورخيس: «على الفن أن يكون مثل إيثاكا تلك، بأبديّة خضراء، وليس بمعجزات».

فكر

ما قاله العفيف الأخضر عن الأصولية

تونس ــ نورالدين بالطيب

«من نقد السماء الى نقد الأرض ـ الشعبوية الأصولية: من أين والى أين؟» هو عنوان أول كتاب يصدر في تونس للمفكر الراحل العفيف الأخضر (1934-2013) عن «دار آفاق برسبكتيف للنشر» التي سبق أن نشرت أول كتاب عن العفيف في تونس (عن العفيف: وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر) في الذكرى الأولى لغيابه الموجع.

قدّم حسونة المصباحي لـ «من نقد السماء الى نقد الأرض» الذي هو في الأصل دراستان صدرت كل واحدة في فترة من مسار العفيف الفكري والمعرفي. الدراسة الأولى «من نقد السماء إلى نقد الارض» صدرت للمرة الأولى سنة 1972 كمقدمة لكتاب «نصوص حول الموقف من الدين». الأخيرة نصوص مختارة من كتابات لينين ترجمها محمد كبة ونشرتها «دار الطليعة» في بيروت بتقديم ومراجعة الأخضر. أما الدراسة الثانية «الشعبوية الأصولية: من أين والى أين»، فقد صدرت سنة 1993 ضمن سلسلة «قضايا فكرية» التي كان يشرف عليها الراحل محمود أمين العالم.

الكتاب يندرج في السياق الذي اختاره العفيف الأخضر لنفسه منذ أن كان طالباً في الجامع الأعظم (الزيتونة) في تونس خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، أي نقد الفكر الديني ومحاربة الدوغمائية و«تحريك السواكن». من خلال هذا الكتاب، توصّل الأخضر إلى صلات بين الأصولية التي تفتك بالعالم اليوم وليس العالم العربي الإسلامي فقط، وبين الشعبوية باعتبارها تعادي العقلانية، والتعدد، وتؤسس للقطيع الذي يسلّم بكل شيء ولا يتساءل عن شيء! يعود الأخضر الى بدايات الاحتجاجات الشعبية في العصر العباسي وصولاً الى الثورة البلشفية وحركات التحرر العربية التي غطت النصف الأول من القرن العشرين، معتبراً أنّ التاريخ العربي لم يعرف الديمقراطية الا في فترة القرامطة أو كما سماها "الديمقراطية الشيوعية في الجمهورية الديمقراطية".

وتعيدنا الدراسة الأولى الى فترة من حياة الأخضر افتتن خلالها بالشيوعية، وكان أحد كبار منظريها، لكنه بدأ في مراجعة أفكاره مع نهاية السبعينيات خصوصاً في بداية الثمانينيات عندما استقر في باريس. وفي الدراسة الثانية عن الشعبوية، يحاول الأخضر أن يجد جواباً لغياب الديمقراطية في الوطن العربي. يرى أنّ «الدولة العربية الاسلامية المعاصرة حافظت على تقليديتها واستبدادها الشرقي العريق. ظل حاكمها أقوى من مؤسساتها والعلاقات الشخصية وروابط المصاهرة والقرابة سائدة كما في الكيانات ما قبل الرأسمالية. تتخذ من دين الغالبية ديناً لها، ما يفترض حكماً إقصاء رعاياها من الأقليات الدينية الأخرى من المواطنة بمفهومها الحديث الحق في تسلم جميع المناصب بغض النظر عن الأصل الديني والاثني».

وفي هذه الدراسة أيضاً، يفسر العفيف الأخضر ظاهرة الأصولية بما سماه بـ «انفلات اللاعقلاني» منذ منتصف السبعينيات بعد الانكماش الاقتصادي. يرى أيضاً أنّ «المعضلة الديموغرافية» هي السبب الرئيس لانهيار مشاريع التنمية في العالم العربي والإسلامي الذي يتضاعف عدد سكانه كل عشر سنوات، بينما يتضاعف كل 100 عام في أميركا وكل 135 عاماً في أوروبا! وفي مواجهة الأزمة الاقتصادية والإحباط، تجد الدعاية الأصولية مناخاً خصباً للانتشار، فتقدم للفئات الفقيرة والمهمشة أجوبة سهلة وبسيطة «لأنّها تستهدف تعبئته وتضليله بمخاطبة مخاوفه، وبدائيته وطوباويته الفصامية: العودة 15 قرناً الى الوراء»!

كتاب «من نقد السماء الى نقد الارض» يكشف عن دراستين شبه مجهولتين للعفيف الاخضر. ومن هنا تأتي الأهمية الأساسية للكتاب، بخاصة أنّه أول عمل يصدر للأخضر في بلاده بعد عام ونصف العام من الغياب الأبدي!